المجموعة التاريخية للصغار

عجائب رحلة ابن بطوطة

قطارُ البركةِ

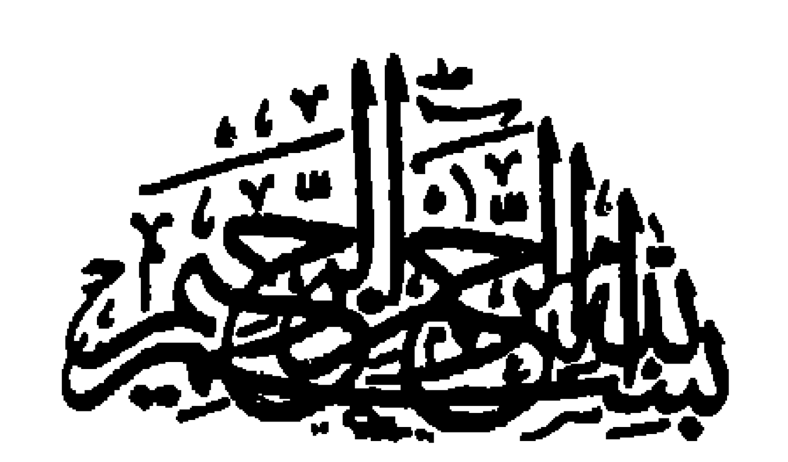


إعداد

عبد القادر محمد مايو

مراجعة

أحمد عبد الله فرهود



منشورات

دار القلم العربي

الطبعة الأولى

مضبوطة ومشكولة

1423 هـ - 2003 م

عنوان الدار :

سورية - حلب - خلف الفندق السياحي ص.ب :78

هاتف 3 2213129 / 2269599 فاكس : 2212361 21 963+

email : qalamrab@scs-net.org

قِطَـارُ البَـرَكَـةِ[1]

قَالَ الرَّحَّالَةُ ابْنُ بَطُّوطَةَ الطَّنْجِيُّ مُحَدِّثاً مَوْلاَهُ السُّلْطَانَ أَبَا عِنَانٍ الفَاسِيَّ ، وَمَعَهُمَا كَاتِبُ السُّلْطَانِ مُحَمَّدُ بْنُ جُزَيٍّ الكَلْبِيُّ :

ـ قَدْ عَلِمَ مَوْلاَيَ السُّلْطَانُ أَنَّ مَبْدَأَ خُرُوجِي مِنْ طَنْجَةَ مِنْ بَيْنِ أَهْلِي وَعَشِيرَتِي بِمَا خَلَّفْتُهُ لَدَىٰ وَالِدَيَّ مِنْ لَوْعَةِ الفِرَاقِ ، كَانَ مَدْعَاهُ أَدَاءَ فَرِيضَةِ الحَجِّ إِلَىٰ مَكَّةَ المُكَرَّمَة ، وَزِيَارَةَ مَدِينَةِ الرَّسُولِ ﷺ ، وَعَلِمَ مَوْلاَيَ أَنَّ الحَجَّ إِلَىٰ الحِجَازِ لَمْ يَكُنْ مَيْسُوراً مِنْ صَعِيدِ مِصْرَ إِلَىٰ جُدَّةَ ، فَاخْتَرْتُ الاتِّجَاهَ إِلَىٰ الشَّامِ بِمَقْدُورٍ كَأَنَّنِي بِهِ عَبْدٌ مَأْمُورٌ . فَلَمَّا أَقَمْتُ بِالشَّامِ وَدِمَشْقَ الشَّامِ . وَاسْتَهَلَّ شَهْرُ شَوَّالَ مِنْ عَامِ سِتَّةٍ وَعِشْرِينَ وَسَبْعِمِائَةٍ ، خَرَجْتُ مَعَ الرَّكْبِ الحِجَازِيِّ ، وَعَلَىٰ رَأْسِهِ أَمِيرُ الرَّكْبِ سَيْفُ الدِّينِ الجُوبَانُ وَكَانَ سَفَرِي مَعَ طَائِفَةٍ مِنَ العَرَبِ تُدْعَىٰ العَجَارِمَةَ

(١) القِطار : الرتل من الإبل أو العربات المسافرة يكون علىٰ نسَق .

فِي قِطَارٍ مِنَ النُّوقِ وَالجِمَالِ أَحَاطَهُ الله بِالرِّعَايَةِ وَالخَيْرِ وَالبَرَكَةِ مِنْ أَوَّلِ الرِّحْلَةِ إِلَىٰ مُنْتَهَاهَا بِطَيْبَةَ الطَّيِّبَة ، وَهٰكَذَا كَانَ . خَرَجْنَا مِنْ دِمَشْقَ إِلَىٰ القَرْيَةِ المَعْرُوفَةِ بِالكِسْوَةِ ، وَمِنْهَا إِلَىٰ قَرْيَةِ الصَّنَمَيْنِ إِلَىٰ بَلْدَةِ زَرْعَةَ مِنْ بِلَادِ حَوْرَانَ ثُمَّ ارْتَحَلْنَا إِلَىٰ مَدِينَةِ بُصْرَىٰ فَأَقَمْنَا بِهَا أَرْبَعاً لِيَلْحَقَ بِنَا مَنْ تَخَلَّفَ بِدِمَشْقَ مِنَ الحَجِيجِ لِقَضَاءِ بَعْضِ مَآرِبِهِ .

وَالمَعْرُوفُ أَنَّ مَدِينَةَ بُصْرَىٰ الشَّامِ هِيَ المَدِينَةُ التِي وَصَلَ إِلَيْهَا رَسُولُ الله ﷺ بِتِجَارَةِ خَدِيجَةَ قَبْلَ البِعْثَةِ ، وَبِهَا مَبْرَكُ نَاقَتِهِ قَدْ بُنِيَ عَلَيْهِ مَسْجِدٌ عَظِيمٌ . وَمِنْ بُصْرَىٰ ارْتَحَلْنَا إِلَىٰ اللّجُونِ ، حَيْثُ المَاءُ الجَارِي ثُمَّ إِلَىٰ حِصْنِ الكَرْكِ ، وَهُوَ مِنْ أَعْجَبِ الحُصُونِ وَأَمْنَعِهَا وَأَشْهَرِهَا وَيُسَمَّىٰ أَيْضاً بِحِصْنِ الغُرَابِ . وَقَدْ أَقَامَ الرَّكْبُ بِخَارِجِ الكَرْكِ أَرْبَعَةَ أَيَّامٍ بِمَوْضِعٍ يُقَالُ لَهُ الثَّنِيَّةُ ، وَجَاءَنِي فِي أَثْنَائِهَا أَمِيرُ العَرَبِ مُحَمَّدُ بْنُ رَافِعٍ العَجْرَمِيُّ وَهُوَ رَجُلٌ جَلِيلُ القَدْرِ ، وَوَكَّلَ إِلَيَّ اصْطِحَابَ رَجُلٍ كَهْلٍ يَبْدُو وَكَأَنَّهُ ذُو لَوْثَةٍ لِغَرَابَةِ مَظْهَرِهِ وَكَانَ مِنْ صُلَحَاءِ غُرْنَاطَةَ ، تَسَمَّىٰ بِعَلِيِّ بْنِ حَجَرَ الأُمَوِيِّ وَتَلَقَّبَ بِخَابِزٍ لأَنَّهُ يُحَرِّكُ يَدَيْهِ دَائماً فِي تَرْقِيقِ الأَرْغِفَةِ وَخَبْزِهَا مِنْ غَيْرِ عَجِينٍ سِوَىٰ مَا تَهَيَّأَ لَهُ بِخَيَالِهِ .

اسْتَجَبْتُ لإِرَادَةِ الأَمِيرِ مُحَمَّدِ بْنِ رَافِعٍ أَمِيرِ العَجَارِمَةِ الذِينَ كُنْتُ فِي قِطَارِهِمْ ، وَدَعَوْتُ خَابِزاً لِيَكُونَ فِي رِفْقَتِي مَسَافَةَ الطَّرِيقِ كُلِّهِ .

وَسَارَ بِنَا الرَّكْبُ حَتَّىٰ وَصَلْنَا إِلَىٰ مَعَانَ وَبِهَا آخِرُ بِلَادِ الشَّامِ ، وَمِنْ عَقَبَةٍ تُدْعَىٰ عَقَبَةَ الصَّوَّانِ نَزَلْنَا إِلَىٰ الصَّحْرَاءِ .

فَجَاءَنِي فِي أَوَّلِ الطَّرِيقِ المُمْتَدِّ فِي الصَّحْرَاءِ مُرَافِقِي خَابِزٌ الغُرْنَاطِيُّ وَبِيَدِهِ رَغِيفَانِ مِنَ الخُبْزِ وَقَالَ لِي :

ـ دُونَكَ يَا سَيِّدِي ، هَذَا رَغِيفٌ لَكَ وَرَغِيفٌ لِي ، فَنَحْنُ الآنَ عَلَىٰ عَتَبَةِ الصَّحْرَاءِ التِي قِيلَ فِيهَا : دَاخِلُهَا مَفْقُودٌ وَخَارِجُهَا مَوْلُودٌ ، وَأَنَا لَا آمَنُ عَلَيْكَ المَوْتَ جُوعاً ، أَمَّا المَاءُ فَدُونَكَ هَذِهِ القُرْبَةَ الصَّغِيرَةَ سَتَجِدُ فِيهَا مَا يَكْفِيكَ لِلشُّرْبِ وَالوُضُوءِ .

اخْتَفَىٰ الشَّيْخُ خَابِزٌ عَنْ نَظَرِي وَلَمْ أَلْقَهُ ثَانِيَةً إِلَّا فِي المَدِينَةِ ، وَأَمَامَ البَقِيعِ يَقْرَأُ الفَاتِحَةَ عَلَىٰ قُبُورِ المُهَاجِرِينَ وَالأَنْصَارِ وَالصَّحَابَةِ الكِرَامِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ . وَبِتُّ أَخْشَىٰ أَنْ يَسْأَلَنِي عَنْهُ أَمِيرُ العَرَبِ الذِي أَلْزَمَهُ بِي وَأَلْزَمَنِي بِهِ كَأَمَانَةٍ فِي عُنُقِي .

وَمَا زِلْنَا فِي قِطَارِ الحَجِّ وَالبَرَكَةِ بَيْنَ حِلٍّ وَتَرْحَالٍ حَتَّىٰ وَصَلْنَا إِلَىٰ تَبُوكَ وَهُوَ المَوْضِعُ الذِي غَزَاهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ . فَلَمَا نَزَلَهَا كَانَ بِهَا عَيْنُ مَاءٍ تَبضُّ بِالقَلِيلِ ، فَلَمَّا تَوَضَّأَ مِنْهَا جَادَتْ بِمَاءٍ غَزِيرٍ ، وَلَمْ تَزَلْ إِلَىٰ هَذَا الزَّمَنِ نَضَّاحةً غَزِيرَةً بِبَرَكَةِ رَسُولِ اللهِ ، يَتَزَوَّدُ مِنْهَا السَّقَّاؤون وَالجَمَّالُونَ فُرَادَىٰ وَجَمَاعَاتٍ وَيُتْرِعُونَ الصَّهَارِيجَ الضِّخَامَ وَالقِرَابَ .

وَفِي خَامِسِ الأَيَّامِ لِرَحِيلِنَا عَنْ تَبُوكَ وَصَلْنَا إِلَىٰ بِئْرِ الحِشْرِ . وَهُوَ حِجْرُ ثَمُودَ ، وَلاَيُسْتَقَىٰ مِنْهَا بِشَيءٍ لأَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ مَرَّ بِهَا فِي غَزْوَةِ تَبُوكَ فَأَسْرَعَ بِرَاحِلَتِهِ وَأَمَرَ أَنْ لاَ يُسْقَىٰ مِنْهَا أَحَدٌ .

وَيَقَعُ مَبْرَكُ نَاقَةِ النَّبِيِّ صَالِحٍ عَلَيْهِ السَّلامُ بَيْنَ جَبَلَيْنِ هُنَاكَ ، وَبَعْدَهُ تَأْتِي قَرْيَةُ العُلا ، وَهِيَ كَبِيرَةٌ حَسَنَةٌ فِيهَا بَسَاتِينُ النَّخْلِ وَالمِيَاهُ المَعِينَةُ . وَمِنَ العُلا نَزَلْنَا الوَادِي المَعْرُوفَ بِالعُطَاسِ وَهُوَ شَدِيدُ الحَرِّ تَهُبُّ فِيهِ رِيحُ السَّمُومِ المُهْلِكَةُ .

وَمِنَ العَجِيبِ أَنَّنِي بَعْدَ أَنْ حَصَلْتُ عَلَىٰ رَغِيفِ الشَّيْخِ الخَابِزِ لَمْ أَشْعُرْ بِجُوعٍ قَطُّ ، فَقَدْ كُنْتُ أَلْتَقِمُ مِنْهُ لُقَيْمَاتٍ فَأَجِدُهُ طَرِيّاً كَمَا كَانَ فِي

أَوَّلِ عَهْدِهِ . أَمَّا المَاءُ فَقَدْ كُنْتُ أَحْتَسِيهِ مِنْ رَوِيِّ الشَّيْخِ أَوْ مِنْ قُرْبَتِهِ بَيْنَ حِينٍ وَآخَرَ فَأَرْتَوِي بِفَضْلٍ مِنَ اللهِ وَبَرَكَةٍ مِنَ الرَّجُلِ الصَّالِحِ عَلِيٍّ بْنِ حَجَرٍ الأُمَوِيِّ الغَرْنَاطِيِّ قَدَّسَ اللهُ سِرَّهُ .

وَفِي ذَاتِ عَشِيٍّ دَخَلَتْ قَافِلَةُ البَرَكَةِ الحَرَمَ الشَّرِيفَ ، فَتَرَجَّلْنَا وَانْتَهَيْنَا إِلَىٰ المَسْجِدِ النَّبَوِيِّ ، فَوَقَفْنَا بِبَابِ السَّلامِ مُسَلِّمِينَ ، وَصَلَّيْنَا بِالرَّوْضَةِ الكَرِيمَةِ بَيْنَ القَبْرِ وَالمِنْبَرِ . وَاسْتَلَمْنَا القِطْعَةَ البَاقِيَةَ مِنَ الجِذْعِ الذِي حَنَّ إِلَىٰ رَسُولِ اللهِ ﷺ وَكَانَتِ القِطْعَةُ مُلْصَقَةً بِعَمُودٍ قَائِمٍ بَيْنَ القَبْرِ وَالمِنْبَرِ عَنْ يَمِينِ مُسْتَقْبِلِ القِبْلَةِ . وَأَدَّيْنَا حَقَّ السَّلامِ عَلَىٰ النَّبِيِّ شَفِيعِ العُصَاةِ وَالمُذْنِبِينَ مُحَمَّدِ بْنِ عَبْدِ اللهِ الهَاشِمِيِّ ﷺ . وَلَمْ نُغْفِلْ حَقَّ السَّلامِ عَلَىٰ ضَجِيعَيْهِ فِي مَثْوَاهُ وَصَاحِبَيْهِ أَبِي بَكْرٍ الصِّدِّيقِ ، وَأَبِي حَفْصٍ عُمَرَ الفَارُوقِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا . وَانْصَرَفْنَا إِلَىٰ رَحْلِنَا المُبَارَكِ مَسْرُورِينَ بِهَذِهِ النِّعْمَةِ العُظْمَىٰ ، حَامِدِينَ اللهَ تَعَالَىٰ عَلَىٰ البُلُوغِ إِلَىٰ مَعَاهِدِ رَسُولِ اللهِ الشَّرِيفَةِ وَمَشَاهِدِهِ العَظِيمَةِ المُنِيفَةِ ، وَاللهُ هُوَ صَاحِبُ المَنِّ وَالفَضْلِ عَلَىٰ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ ، جَلَّ جَلالُهُ .

قَالَ السُّلْطَانُ أَبُو عِنَانٍ وَهُوَ مَشْدُودُ الاهْتِمَامِ إِلَىٰ حَدِيثِ ابْنِ بَطُّوطَةَ :

ـ هَلْ لَكَ أَنْ تُحَدِّثَنَا المَزِيدَ عَنْ مَسْجِدِ رَسُولِ الله ﷺ وَرَوْضَتِهِ الشَّرِيفَةِ ، فَهُمَا مَوْضِعُ حَنِينِ كُلِّ مُؤْمِنٍ مُشْتَاقٍ إِلَىٰ نَبِيِّ الرَّحْمَةِ المُهْدَاةِ وَمَوَاقِعِ أَقْدَامِهِ الشَّرِيفَةِ حَيْثُ اسْتَقَرَّ مَقَرَّهُ بَيْنَ أَنْصَارِهِ ، وَالمُهَاجِرِينَ مَعَهُ فِي يَثْرِبَ .

قَالَ ابْنُ بَطُّوطَةَ :

ـ إِنَّ فَيْضَ الأَنْوَارِ الغَامِرَ تَسْتَوْعِبُهُ القُلُوبُ أَكْثَرَ مِمَّا تَسْتَوْعِبُهُ الأَسْمَاعُ ، وَلَيْسَ مَنْ سَمِعَ كَمَنْ رَأَىٰ وَلَكِنَّنِي ـ مَعَ ذَلِكَ ـ سَأُحْدِثُ لِمَوْلَايَ مِنْهُ ذِكْراً بِمَا يُوَفِّقُنِي إِلَيْهِ الله . .

اعْلَمْ يَا مَوْلَايَ السُّلْطَانَ أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ قَدْ قَدِمَ فِي عَام هِجْرَتِهِ إِلَىٰ يَثْرِبَ يَوْمَ الاثْنَيْنِ الثَّالِثَ مِنْ شَهْرِ رَبِيعِ الأَوَّلِ ، فَنَزَلَ عَلَىٰ بَنِي عَوْفٍ ثُمَّ عَلَىٰ بَنِي النَّجَّارِ بِدَارِ أَبِي أَيُّوبَ الأَنْصَارِيِّ رَضِي الله عَنْهُ ، وَأَقَامَ عِنْدَهُ سَبْعَةَ أَشْهُرٍ حَتَّىٰ بَنَىٰ مَسَاكِنَهُ وَمَسْجِدَهُ .

وَكَانَ مَوْضِعُ المَسْجِدِ مِرْبَداً لِلإِبِلِ وَمَا شَاكَلَهَا ، وَفَضَاءً وَرَاءَ البُيُوتِ ، فَبَنَىٰ رَسُولُ الله المَسْجِدَ ، وَعَمِلَ فِيهِ مَعَ أَصْحَابِهِ .

وَأَقَامُوا لَهُ فِي بَادِىءِ الأَمْرِ أَسَاطِينَ مِنْ جُذُوعِ النَّخْلِ . وَقَامَ عُمَرُ ابْنُ الخَطَّابِ بِتَوْسِعَتِهِ فِي عَهْدِهِ ، ثُمَّ زَادَ فِيهِ الوَلِيدُ بْنُ عَبْدِالمَلِكِ ، وَتَوَلَّىٰ ذَلِكَ عُمَرُ بْنُ عَبْدِ العَزِيزِ فَوَسَّعَهُ وَحَسَّنَهُ وَبَالَغَ فِي إِتْقَانِهِ وَعَمِلَهُ بِالرُّخَامِ وَالسَّاجِ المُذَهَّبِ .

وَكَانَ طُولُ المَسْجِدِ فِي بِنَاءِ الوَلِيدِ مِائَتَي ذِرَاعٍ فَبَلَّغَهُ الخَلِيفَةُ المَهْدِيُّ إِلَىٰ ثَلَاثِمِائَةِ ذِرَاعٍ ، وَسَوَّىٰ مَقْصُورَتَهُ بِالأَرْضِ وَكَانَتْ مُرْتَفِعَةً عَنْهَا بِمِقْدَارِ ذِرَاعَيْنِ . وَكَتَبَ اسْمَهُ عَلَىٰ مَوَاضِعَ مِنَ المَسْجِدِ .

ثُمَّ أَمَرَ المَلِكُ المَنْصُورُ قَلَاوُونُ بِبِنَاءِ دَارٍ لِلوُضُوءِ عِنْدَ بَابِ السَّلَامِ جَعَلَهَا مُتَّسِعَةَ الفِنَاءِ ، وَأَجْرَىٰ إِلَيْهَا المَاءَ وَأَرَادَ أَنْ يَبْنِيَ بِمَكَّةَ المُكَرَّمَةِ شَرَّفَهَا اللهُ تَعَالَىٰ مِثْلَ ذَلِكَ فَلَمْ يَتِمَّ لَهُ ذَلِكَ ، فَبَنَاهُ ابْنُهُ المَلِكُ النَّاصِرُ بَيْنَ الصَّفَا وَالمَرْوَةِ .

وَيَدُورُ بِالمَسْجِدِ النَّبَوِيِّ الشَّرِيفِ شَارِعٌ مُبَلَّطٌ بِالحَجَرِ المَنْجُوتِ . أَمَّا الرَّوْضَةُ المُقَدَّسَةُ فَهِيَ فُسْحة مُدَوَّرة بِالرُّخَامِ البَدِيعِ النَّحْتِ ، قَدْ عَلَاهَا تَضْمِيخُ المِسْكِ وَالطِّيبِ مَعَ طُولِ الأَزْمَانِ ، وَفِي الصَّفْحَةِ القِبْلِيَّةِ مِنْهَا

مِسْمَارُ فِضَّةٍ هُوَ قُبَالَةَ الوَجْهِ الكَرِيمِ ، وَهُنَالِكَ يَقِفُ النَّاسُ لِلسَّلامِ مُسْتَدْبِرِينَ القِبْلَةَ فَيُسَلِّمُونَ وَيَنْصَرِفُونَ يَمِيناً إِلَىٰ وَجْهِ أَبِي بَكْرٍ الصِّدِّيقِ ثُمَّ يَنْصَرِفُونَ إِلَىٰ عُمَرَ بْنِ الخَطَّابِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا .

وَفِي وَسَطِ المَسْجِدِ مِفْضَاةٌ إِلَىٰ دَارِ أَبِي بَكْرٍ خَارِجَ المَسْجِدِ وَمِنْهَا طَرِيقُ عَائِشَةَ أُمِّ المُؤْمِنِينَ إِلَىٰ دَارِ أَبِيهَا . . وَعَلَىٰ مَقْرُبَةٍ مِنْ بَابِ السَّلامِ سِقَايَةٌ يُنْزَلُ إِلَيْهَا عَلَىٰ درَجٍ مَاؤهَا مَعِينٌ ، وَتُعْرَفُ بِالعَيْنِ الزَّرْقَاءِ . .

إِلَىٰ هُنَا يَا مَوْلَايَ أَبَا عِنَانٍ أَرْجُو أَنْ أَكُونَ قَدْ وَفَّيْتُ الحَدِيثَ عَنْ مَسْجِدِ رَسُولِ اللهِ ﷺ فِي مَدِينَتِهِ وَدَارِ هِجْرَتِهِ . .

قَالَ السُّلْطَانُ أَبُو عِنَانٍ لِمُحَدِّثِهِ الرَّحَالَةِ ابْنِ بَطُّوطَةَ :

ـ وَلَكِنْ مَا خَبَرُ المِنْبَرِ النَّبَوِي الشَّرِيفِ ؟ .

قَالَ ابْنُ بَطُّوطَةَ :

ـ فِي الحَدِيثِ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ كَانَ يَخْطُبُ إِلَىٰ جِذْعِ نَخْلَةٍ بِالمَسْجِدِ ، فَلَمَّا صُنِعَ لَهُ المِنْبَرُ وَتَحَوَّلَ إِلَيْهِ ، حَنَّ الجِذْعُ مُصَوِّتاً حَنِينَ النَّاقَةِ ، فَنَزَلَ رَسُولُ اللهِ ﷺ إِلَىٰ الجِذْعِ فَالْتَزَمَهُ وَضَمَّهُ إِلَيْهِ مُسْتَرْضِياً حَتَّىٰ

سَكَنَ حَنِينُهُ . وَقَالَ : لَوْ لَمْ أَلْتَزِمْهُ لَحَنَّ إِلَىٰ يَوْمِ القِيَامَةِ .

قَالَ السُّلْطَانُ أَبُو عِنَانٍ لِمُحَدِّثِهِ ابْنِ بَطُّوطَةَ :

ـ هَلْ جَرَىٰ فِي عِلْمِكَ يَا أَبَا عَبْدِ الله مَنْ صَنَعَ ذَلِكَ المِنْبَرَ ؟

قَالَ الرَّحَّالَةُ ابْنُ بَطُّوطَةَ :

ـ اخْتَلَفَتِ الرِّوَايَاتُ فِيمَنْ صَنَعَ المِنْبَرَ ، فَقِيلَ إِنَّهُ تَمِيمٌ الدَّارِيُّ ، وَقِيلَ إِنَّهُ غُلَامٌ لِلعَبَّاسِ بْنِ عَبْدِ المُطَّلِبِ ، وَقِيلَ : غُلامٌ لإمْرَأَةٍ مِنَ الأَنْصَارِ . خَشَبُهُ مِنَ الأَثْلِ أَوْ الطُّرْفَاءِ[1] وَكَانَتْ لِلمِنْبَرِ ثَلاثُ دَرَجَاتٍ ، يَقْعُدُ الرَّسُولُ عَلَىٰ عُلْياهِنَّ ، وَيَضَعُ رِجْلَيْهِ فِي وُسْطَاهُنَّ .

وَلَمَّا صَارَ الأَمْرُ إِلَىٰ مُعَاوِيَةَ بْنِ أَبِي سُفْيَانَ أَرَادَ نَقْلَ المِنْبَرِ إِلَىٰ الشَّامِ فَضَجَّ المُسْلِمُونَ ، وَعَصَفَتْ رِيحٌ شَدِيدَةٌ وَكُسِفَتِ الشَّمْسُ وَأَظْلَمَتْ الأَرْضُ فَلَمْ يَسَعْ مُعَاوِيَةَ إِلاَّ تَرْكُهُ حَيْثُ هُوَ مِنَ المَسْجِدِ النَّبَوِيِّ . وَزَادَ فِيهِ سِتَّ دَرَجَاتٍ مِنْ أَسْفَلِهِ فَبَلَغَ بِهِ تِسْعَ دَرَجَاتٍ . .

قَالَ السُّلْطَانُ أَبُو عِنَانٍ :

---

(١) الأثل والطرفاء : ضربان من الشجر ينتجر منهما .

ـ إِنَّ لَبْثَ المِنْبَرِ النَّبَوِيِّ الشَّرِيفِ فِي مَكَانِهِ كَرَامَةٌ مَلْحُوظَةٌ مِنْ كَرَامَاتِ نَبِيِّنَا عَلَيْهِ الصَّلاةُ وَالسَّلامُ . .

قَالَ الرَّحَّالَةُ أَبُو عَبْدِ الله ، ابْنُ بَطُّوطَةَ :

ـ إِنَّ مُعْجِزَاتِ النُّبُوَّةِ كَثِيرَةٌ ، كَانَ مِنْهَا حَنِينُ المِنْبَرِ ، وَانْشِقَاقُ القَمَرِ وَتَحْذِيرُ الضِّلْعِ المَسْمُومِ ، وَغَيْرُهَا وَغَيْرُهَا ، وَلِحَدِيثِهَا مَوْطِنٌ آخَرُ . .

قَالَ السُّلْطَانُ أَبُو عِنَانٍ الفَاسِيُّ :

ـ صَدَقْتَ يَا بْنَ بَطُّوطَةَ ، فَحَدِّثْنِي الآنَ عَنْ عَجَائِبِ مَا رَأَيْتَ وَسَمِعْتَ ، وَقَدْ انْتَظَمَتْكَ قَافِلَةُ البَرَكَةِ فِي قِطَارٍ مِنَ الإِبِلِ مِنْ دِمَشْقَ إِلَىٰ المَدِينَةِ المُنَوَّرَةِ . .

قَالَ الرَّحَّالَةُ أَبُو عَبْدِ الله ، ابْنُ بَطُّوطَةَ :

ـ لَقَدْ وَقَعَتْ لِي وَأَنَا بِالمَدِينَةِ المُنَوَّرَةِ أَخْبَارٌ وَ أَخْبَارٌ وَلَكِنَّنِي أَسْتَأْذِنُ مَوْلَايَ السُّلْطَانَ فِي حِكَايَةِ خَبَرِ عَلِيِّ بْنِ حَجَرِ الأُمَوِيِّ الغُرْنَاطِيِّ المُلَقَّبِ بِالخَابِزِ ، فَلَقَدْ اطَّلَعْتُ مِنْ خَبَرِهِ عَلَىٰ عَجَائِبَ مُذْ بَلَغْنَا المَدِينَةَ المُنَوَّرَةَ فَجَاوَرَ فِي مَسْجِدِهَا ، وَكَانَ مِنْهَامَا رَأَيْتُهُ مِنْهُ فِي البَقِيعِ ، وَكَانَ مِنْهَا

بُلُوغُهُ مَقْصِدِي مَدِينَةَ دَهْلِي مِنْ بِلاَدِ الهِنْدِ فِي سَنَةِ ثَلاَثٍ وَأَرْبَعِينَ وَسَبْعِمائَةٍ حَيْثُ التَقَيْتُهُ هُنَاكَ بِقُدْرَةِ مُقَدِّرٍ لاَ أَدْرِي مَا حِكْمَتُهُ إِلاَّ أَنَّهُ فَعَّالٌ لِمَا يُرِيدُ .

قَالَ السُّلْطَانُ أَبُو عِنَانٍ لِنَدِيمِهِ ابْنِ بَطُّوطَةَ :

ـ عَجِّلْ ، وَقُصَّ عَلَيْنَا مِنْ خَبَرِهِ العَجِيبِ مَا رَأَيْتَ وَسَمِعْتَ . . فَأَنْتَ أَدْرَىٰ بِلَزِيمِكَ المُرَافِقِ فِي قِطَارِ البَرَكَةِ . .

قَالَ الرَّحَّالَةُ أَبُو عَبْدِ الله ، شَمْسُ الدِّينِ ، ابْنُ بَطُّوطَةَ :

ـ دَأَبَ صَاحِبِي عَلِيُّ بْنُ حَجَرٍ عَلَىٰ عَادَتِهِ فِي خَبْزِ الرُّقَاقَاتِ مِنْ صُنْعِهِ ، وَتَقْدِيمِهَا لِمَنْ يَخْتَارُهُ لِتَحِلَّ عَلَيْهِ بَرَكَاتُهُ ، فَلَمَّا وَصَلْنَا إِلَىٰ المَدِينَةِ المُنَوَّرَةِ ، كَرَّمَهَا الله ، جَاءَنِي الخَابِزُ فِي تَالِي أَيَّامِنَا عَقِبَ صَلاةِ الفَجْرِ بِالرَّوْضَةِ النَّبَوِيَّةِ الشَّرِيفَةِ ، وَجَذَبَنِي مِنْ يُمْنَايَ حَتَّىٰ تَجَاوَزْنَا الحَرَمَ إِلَىٰ خَارِجِهِ فَقَالَ لِي :

ـ هَلْ لَكَ فِي بَيْتَيْنِ مِنَ الشِّعْرِ حَضَرَانِي بِالرُّؤيَا ؟ !

قُلْتُ : وَمَا هُمَا ؟ قَالَ : اسْمَعْ وَاحْفَظْ عَنِّي :

هَنِيئاً لَكُمْ يَا زَائِرِينَ ضَرِيحَهُ أَمِنْتُمْ بِهِ يَوْمَ المَعَادِ مِنَ الرِّجْسِ
وَصَلْتُمْ إِلَىٰ قَبْرِ الحَبِيبِ بِطِيْبَةٍ فَطُوبَىٰ لِمَنْ يُضْحِي بِطَيْبَةَ أَوْ يُمْسِي

قُلْتُ لَهُ : زِدْنِي يَا عَلِيُّ . فَأَجَابَنِي أَنَا مَشْغُولٌ الآنَ بِالخَبْزِ . وَرَاحَ يُرَقِّقُ رُقَاقَاتِهِ بَيْنَ يَدَيْهِ ، وَيُقَدِّمُهُ إِلَىٰ المَاشِينَ وَالقَاعِدِينَ مِنْ حَوْلِهِ ، عَلَىٰ أَنَّهَا مَؤُونَةٌ حَقِيقِيَّةٌ . وَمَا لَبِثَ الرَّجُلُ المُلْتَاثُ أَنْ غَادَرَنِي مُوَدِّعاً وَهُوَ يَقُولُ :

ـ أَنَا مُسَافِرٌ فِي قِطَارِ البَرَكَةِ تَجِدُنِي كَمَا كُنَّا فِي رِحْلَتِنَا مِنْ دِمَشْقَ ثَانِيَ اثْنَيْنِ عَلَىٰ الرَّحْلِ .

وَلَمَّا كُنْتُ فِي زِيَارَةِ بَقِيعِ الغَرْقَدِ[1] بِشَرْقِيِّ المَدِينَةِ المُنَوَّرَةِ أَتَحَرَّىٰ قَبْرَ صَفِيَّةَ بِنْتِ عَبْدِالمُطَّلِبِ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا ، وَهِيَ عَمَّةُ رَسُولِ اللهِ ﷺ ، وَأَمَامَهَا قَبْرُ إِمَامِ المَدِينَةِ مَالِكِ بْنِ أَنَسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ ، وَقَبْرُ عَقِيلِ بْنِ أَبِي طَالِبٍ أَخِي أَمِيرِ المُؤْمِنِينَ ، وَكَانَتْ عَيْنَايَ تَحْتَبِسَانِ الدُّمُوعَ وَكَانَ قَلْبِي يُكِنُّ الخُشُوعَ ، فَإِذَا بِصَوْتِ عَلِيِّ بْنِ حَجَرٍ الخَابِزِ يَطْرُقُ مَسْمَعِي

---

(١) الغرقد : شجر عظيم ويقال له العوسج .

مِنَ الخَلْفِ ، فَالْتَفَتُّ إِلَيْهِ فَإِذَا هُوَ بَاسِطٌ كَفَّيْهِ مُسْتَرْسِلاً بِقِرَاءَةِ فَاتِحَةِ الكِتَابِ ، فَلَمَّا انْتَهَىٰ أَشَارَ بِيَدَيْهِ مُوَزِّعاً ثَوَابَ مَاقَرَأَهُ بَدَداً فِي كُلِّ اتِّجَاهٍ . .

حَاوَلْتُ أَنْ أَقْتَادَهُ فِي طَرِيقِي خُطُوَاتٍ لِلبَحْثِ عَنْ قُبُورِ بَعْضِ الصَّحَابَةِ وَالصَّالِحِينَ ، وَلَكِنَّهُ وَلَّىٰ مُسْرِعاً مُتَشَاغِلاً بِخَبْزِ رُقَاقَاتِهِ . . وَلَمَّا نَادَيْتُهُ بِصَوْتٍ جَهِيرٍ :

ـ يَا عَلِيُّ . . يَا عَلِيُّ . . مَتَىٰ تَعُودُ ؟ وَأَيْنَ أَلْقَاكَ ؟

أَلَنْ تَسْتَأْنِفَ رِحْلَتَكَ فِي قِطَارِ البَرَكَةِ إِلَىٰ مَكَّةَ لأَدَاءِ فَرِيضَةِ الحَجِّ ؟

أَجَابَنِي عَنْ ثِقَةٍ وَتَصْمِيمٍ :

ـ أَلْقَاكَ هُنَاكَ . . هُنَاكَ . .

سَأَلْتُهُ :

ـ هُنَاكَ فِي مَكَّةَ ؟ !

أَجَابَ :

ـ هُنَاكَ فِي دَهْلِي .

وَكَانَ أَنْ لَقِيتُهُ هُنَاكَ فِي دَهْلِي مِنْ بِلَادِ الهِنْدِ .

قَالَ السُّلْطَانُ أَبُو عِنَانٍ لابْنِ بَطُّوطَةَ :

ـ حَقاً ، إِنَّ حِكَايَةَ عَلِيٍّ الخَابِزِ حِكَايَةٌ مِنَ العَجَائِبِ . . وَمَا أَخْبَارُ رِحْلَتِكَ إِلَىٰ مَكَّة المُكَرَّمَةِ . .

قَالَ ابْنُ بَطُّوطَةَ لِمَوْلَاهُ السُّلْطَانِ :

ـ إِنَّهَا حِكَايَةٌ تَطُولُ وَأَسْتَمِيحُكَ العُذْرَ فِي تَأْجِيلِهَا إِلَىٰ لَيْلَةٍ أُخْرَىٰ . . عَلَىٰ الأَقَلِّ مِنْ قَبِيلِ الرِّفْقِ بِصَاحِبِنَا الكَاتِبِ ابْنِ جُزَيٍّ . . وَغَمَزَ ابْنُ بَطُّوطَةَ بِعَيْنَيْهِ غَمْزَةً ذَاتَ مَعْنَىٰ وَتَبَسَّمَ السُّلْطَانُ مُبْدِياً مُوَافَقَتَهُ عَلَىٰ التَّأْجِيلِ . . أَمَّا ابْنُ جُزَيٍّ فَقَالَ مُمَازِحاً :

ـ لَا تَجْعَلَا التَّأْجِيلَ بِسَبَبِي . . أَنَا مُسْتَعِد أَنَا مُسْتَعِد مِنَ الآنَ وَحَتَّىٰ مَطْلِعِ الفَجْرِ . .

وَقَهْقَهَ الجَمِيعُ ضَاحِكِينَ ، وَانْفَضَّ المَجْلِسُ بِإِذْنِ السُّلْطَانِ أَبِي عِنَانٍ .

☆☆ ☆☆ ☆☆